خصائص الإستعمال اللغوي
في سورة النحل

Characteristics of Linguistic use Surah AL - Nahl Numbers

أ.د. بلال عبد الستار مشحان

Profssor Dr. Bilal Sattar Mashhan

الملخص

تقوم الدراسة على البحث في خصائص الاستعمال اللغوي في سورة النحل، وتهدف إلى إبراز الجانب الإعجازي في هذه السورة، وانقسمت الدراسة فيها الى نوعين، الأول دراسة نقدية أسلوبية، والثاني دراسة وصفية. وبرز في هذه الدراسة قضية السياق. فكان الاستعمال اللغوي مراعياً للسياق وهو ما يشير إلى عظمة نظم القرآن وروعته. فلا يمكن للكلمة أن تأتي مكان الأخرى، فلكلّ كلمة مناسبتها للسياق الذي وردت فيه.

Abstract:

This study examines the characteristics of linguistic usage in Surat An - Nahl and aims to highlight the miraculous aspect of this surah. The study is divided into two types: the first is a critical stylistic study, and the second is a descriptive study. A key issue that emerged in this research is the role of context. Linguistic usage is shown to be carefully aligned with context, which points to the greatness and magnificence of the Qur'anic composition. A word cannot be replaced by another, as each word has its own suitability to the context in which it appears.

المقدمة

الحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه، وأفاض لدينا مننه، وأنزل إلينا كتابه الذي فصّل آياته فأحكمه وأتقنه، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله الأبرار وصحبه الغر الأخيار.

وبعد؛

فالقرآن الكريم هو كتاب الله الخالد المعجز بلفظه ونظمه، ومن أحق ما أنفقت فيه نفائس الأعمار وقصر على اعتباره وتدبره الملوان الليل والنهار. ومن ثمَّ كانت أشرف العلوم هي التي تدور حوله، فتشرح غامضه، وتوضح مبهمه، وتبيّن جوانب العظمة في آياته. وخدمة كتاب الله تعالى من أجلّ ما يقدمه المرء بين يدي أعماله. فرأيت أن أبحث في خصائص الاستعمال اللغوي في آياته، واخترت منها سورة النحل. لأكشف جزءً من أسراره ودقائقه. وحسبي أني حاولت جاهداً كشف خصائصه اللغوية. فإن كنت قد أخطأت في بعضها فمن نفسي. وإن كنت قد أصبت فبتوفيق الله ورعايته. وقسّمت دراستي على ثلاثة مباحث: درست في المبحث الأول ما يتعلق بالتركيب، وجعلته موزعاً على مطلبين: بحثت في المطلب الاول التقديم والتأخير، وبيّنت في المطلب الثاني الذكر والحذف. أمّا المبحث الثاني فتناولت فيه ما يخصّ المفردة، وجعلته على مطلبين: عرضت في المطلب الأول الإفراد والجمع، وبحثت في المطلب الثاني التذكير والتأنيث. وبسطت القول في المبحث الثالث عن الأفعال، وجعلته موزعاً على أربعة مباحث: خصصت الأول منها بالفعل الماضي المتصل بضمير الجمع، ودرست في المطلب الثاني الفعل المضارع المتصل بضمير الجمع، وعرضت في المطلب الثالث الفعل المضارع والأمر. أمّا المطلب الرابع فبحثت فيه الفعل الماضي والمصدر. أما الخاتمة فإني ذكرت فيها نتائج دراستي في هذا الموضع. وكانت مصادر البحث متنوعة، يأتي في مقدمتها كتب التفسير، وكتب المتشابه اللفظي، وكتب علوم القرآن واللغة.

والله أسأل الصدق في القول، والإخلاص في العمل، وأن يحقق بهذا البحث النفع العميم وأن يعظم به الأجر بقدر مالي فيه من حسن القصد ونبيل الهدف. والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

المبحث الأول ما يتعلق بالتركيب

المطلب الأول: التقديم والتأخير

أولا: قال عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل: ١٤، بتأخير المجرور عن اسم الفاعل (مواخر)، في حين قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فاطر: ١٢، بتقديم المجرور على اسم الفاعل (مواخر).

والعلة في ذلك، أنَّ آية النحل بنيت على تأخير المجرورات عمّا تعلّقت به، فجرى السياق جرياً واحداً[١]؛ للتناسب والتشكيل، فقيل: لتأكلوا منه، وتستخرجوا منه، ومواخر فيه. ولو قيل هنا: فيه مواخر، وتقدّم المجرور على العامل فيه وهو (مواخر) اسم الفاعل المجموع من (المخر)، وهو شق السفينة للبحر، كما ناسب ما تقدّم ممّا بنيت عليه الآية من تقدّم للمجرورين قبله[٢].

أمّا الآية الثانية فمبنية على تقدّم المجرور على ما تعلّق به، (فتأكلون) العامل في المجرور الذي هو (كل)، متأخّر عنه[٣]. فناسب ذلك تأخير العامل أيضاً في المجرور الثاني؛ ليتناسب الكلام ببناء آخره على ما بُنيَ أوله، ولم يكن ليصح ما لا يناسب.

الذكر والحذف:

قال عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل: ١٤، وقال جل وعلا: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فاطر: ١٢. بزيادة الواو في قوله: ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ في سورة النحل وحذفها في سورة فاطر، وكذلك بزيادة الواو في قوله: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ في سورة النحل وحذفها في سورة فاطر.

(١) ينظر: البحر المحيط ٣ / ٢٠٤.
(٢) ينظر: ملاك التأويل ٢ / ٧٤١.
(٣) ينظر: البرهان للكرماني ١٢٣.

وتعليل ذلك أنَّه لمّا ذكر الله تعالى في سورة النحل النعم التي سخّر البحر من أجلها، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ لكذا وكذا، فعدّ جملاً ثلاثاً مِن أكل السمك، واستخراج الحلية، وطلب فضله بركوبه[١]. فكان وجه الكلام أن يعطف الثالثة على ما قبلها بالواو؛ ولأنَّ نعمة التسخير نظمها مع ما قبلها، والمشتركات في العامل (الفعل)[٢]، حقها أن يعطف بعضها على بعض؛ لتستوي في تعلّقها به واجتماعها فيه، فلمّا ذكر النعمتين في قوله: ﴿ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾، احتاج إلى ذكر النعمة الثالثة، فعطفها على ما تقدم من وصف ما عليه البحر؛ ليمهد لذكر النعمة الثالثة، وهي ما يطلب من فضل الله تعالى بأنواع التجارات في البحر[٣]. ونقل الأمتعة فيه من مصر إلى مصر. فضلاً عن أنَّ الفعل الذي هو (سخَّر لكم البحر) يقتضي إشراكه فيما دخل فيه ما قبله، ولأنَّ (مواخر) قد فصل قوله: ﴿ فِيهِ ﴾، بينها وبين قوله: ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ ﴾ فاجتماع هذه الأسباب أوجب اختيار الواو في هذا المكان في قوله: ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ ﴾. فناسب مجيء الواو هنا السياق؛ لأنَّه مظنّة إطناب وتفصيل[٤].

أما حذف الواو في الآية الثانية؛ فلأنَّ الآية لم تبنَ على فعل يقتضي استيعاب ما يتعلق به كما كان في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ لكذا او كذا، وذكر بعضه إثر بعض ثمَّ صارت (مواخر) تلي قوله: ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ ﴾، وصَحَّ تعلّق الكلام بمعنى (المواخر) لأنَّ معناها التي تشق الماء وتسير بأهلها، والله سخرها على هذه الصفة ﴿ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فلمّا اتصلت (مواخر) ب(لتبتغوا) ولم يحجز بينهما ظرف، استغنى عن الواو[٥]. ولأنَّه لم يتقدّم فعل بنيت عليه الآية دال على تعلّقه بنعم يجب أن يعطف بعضها على بعض كما كان في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾، إذ أول هذه الآية: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ . فجاءت هذه الآية في سياق إبداء القدرة وجليل الحكمة، فجاء قبلها قوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾، ثمَّ قال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا

(١) ينظر: روح المعاني ٩ / ٣٠٤.
(٢) ينظر: الكشاف ٢ / ١٠٣.
(٣) ينظر: درة التنزيل ١٤٥.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير ١٧ / ٦٣.
(٥) ينظر: مفاتيح الغيب ١٣ / ٣٤٢.

مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾، فالمقصود هنا الاعتبار بانفراده سبحانه بخلق ذلك كله والقدرة عليه وإحكام الصنعة فيه، ثمَّ تجرد باقي الكلام للتعريف بالإنعام والامتنان[1]، فقال تعالى: ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ فاطر: ١٢، فتعلق المجرور بالفعل الذي هو (لتبتغوا) باسم الفاعل المجموع (مواخر)، فلمّا تعلّقت للام بمواخر من حيث تحمّل اللفظ معنى الفعل، لم يصح دخول الواو، ولم يكن كآية النحل[2]، فافترق القصدان، ولم يلائم كلاً من الموضعين إلا الواو فيه. فبان الفرق بين الموضعين فيما يختار له إثبات الواو وحذفها.

وعلة زيادة (منه) في آية النحل، وحذفها من فاطر، أنَّ معنى الكلام في قوله: ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ فاطر: ١٢ مستقل لا إبهام فيه ولا احتمال؛ لأنَّ تقدير الكلام: من كل البحر أكلكم وإستخراج الحلية للباس، فالكلام في قوة المبتدأ والخبر، لا يوهم خلاف ما ذكر[3]، وأما قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ النحل: ١٤، فلو سقط هنا المجرور الذي هو (منه) لكان مجالاً للاحتمال، لو قيل: (وتستخرجوا حلية) لم يكن بالنص في أنَّ استخراج الحلية من البحر وإن كان ظاهراً، إلا أنَّ هذا القدر من الاحتمال منقدح هنا وغير منقدح في سورة فاطر. فأثبت الضمير المجرور هنا رفعاً لهذا الاحتمال[4]، ولم يثبت في سورة فاطر، لأنَّه لا انقداح فيها للاحتمال، فورد كل لفظ على ما يجب عليه المعنى والسياق.

ثانياً: قال تعالى: ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ النحل: ٢٩، وقال عز وجل: ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ الزمر: ٧٢، وقال جل وعلا: ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ غافر: ٧٦. بزيادة اللام في سورة النحل، وحذفها من سورتي الزمر وغافر.

والعلة في ذلك أنَّ آية النحل تقدمها ثماني آيات في ذكر قوم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم. وهم الذين أخبر الله عن أتباعهم أنّهم سألوهم عن القرآن فقالوا ليس من عند الله، وإنَّما

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم ٣ / ١٥٧.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤ / ٢٦٧.
(٣) ينظر: بصائر ذوي التمييز ٥ / ٣٨٠.
(٤) ينظر: الدر المصون ٣ / ٤٠٧.

هو أساطير الأولين[1]، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ النحل: ٢٤ – ٢٥، وتلك إطالة في ذكرهم، وهؤلاء أكثر الناس آثاماً وأشدهم عقاباً، ومن هذه صفته اختير عند تغليظ العقاب له إلى المبالغة في تأكيد لفظه[2]، فاختيرت اللام هنا لذلك. فالإطناب بذكر هؤلاء القوم يناسبه التأكيد باللام المشيرة إلى معنى القسم[3]، فضلاً عن اقتضاء السياق لزيادة اللام هنا؛ لأنَّ بعدها ذكر أهل الجنة فقال: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ النحل: ٣٠، فاللام في (لنعم) قابلت اللام في (لبئس). فجرى السياق على نظم واحد من الاستعمال[4]، وليس كذلك في سورتي غافر والزمر؛ لأنَّ السياق فيهما جاء بذكر جملة الكفار، قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ ﴾ الزمر: ٧١، وقال في سورة غافر: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ غافر: ٧٠، إلى قوله: ادخلوا، وذلك كلام قد جمع الإيجاز، فلم يذكر من كفرهم مثل ما ذكر في المذكورين قبله في سورة النحل، فناسب الإيجاز الواقع قبل آية الزمر مع ما أجمل فيها من كفرهم سقوط اللام من قوله (فبئس). فناسب المقام سقوطها من السياق. وبذلك جاء التعبير بحسب ما يقتضيه السياق[5].

ثالثاً: قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ النحل: ٦٠، وقال عز وجل: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الروم: ٢٧، بزيادة: ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ في آية الروم، وحذفها في آية النحل.

والسبب في ذلك أنَّ السياق جرى بحسب المعنى المقتصى المقصود في كلّ من الآيتين. فآية الروم سبقتها الآية التي قبلها في ذكر السموات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ الروم: ٢٦، فناسب السياق مجيء هذه الألفاظ في الآية التي بعدها للتأكيد على قدرة الله تعالى[6]، فضلاً عن ورود هذه الآية بعد آيات سبقتها في التأكيد على قضية الليل والنهار والبرق والمطر، فناسب السياق تكرار ذكر ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ لمناسبتها للمعنى،

(١) ينظر: معترك الأقران ٢ / ١١٣.
(٢) ينظر: البرهان للزركشي ٢ / ٨٧.
(٣) ينظر: الجنى الداني ٣٩٥.
(٤) ينظر: درة التنزيل ١٤٧.
(٥) ينظر: نظم الدرر ٤ / ٣٥.
(٦) ينظر: روح المعاني ٩ / ٣١٤.

فكلّ ما ذكر في الآيات السابقة لها إنّما هو موجود في السماء ونازل إلى الأرض. فجاء السياق مطابقاً للمعنى الذي اقتضاه. فضلاً عن أنَّ لفظ (السماء والأرض)[١]، ورد في الآية الخامسة والعشرين من السورة نفسها، وهذا يقوي ما ذهبنا إليه من فائدة تكرارها، عطفاً على نسق الآيات التي قبلها.

أمّا آية النحل فلم يقتضي السياق ذكر السموات والأرض؛ وذلك لسبقها بقوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ ﴾ فجرت الآية على نسق التقابل المعنوي[٢]، فقابل ﴿ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ ﴾ بـ ﴿ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ ﴾، فتطابق الكلام وتناسب موازنة للفظ ومراعاة للتقابل. فضلاً عن ذكر ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ﴾ قبلها، فناسب عدم ذكرها في هذه الآية. فالآيات التي قبلها جاءت في سياق نفي الشرك؛ لأنَّ المشركين نسبوا لله البنات، سبحانه وتعالى عمّا يصفون[٣]. فلم يقتضي السياق ذكر السموات والأرض. لأنَّ هذه القضية تخصّ صفات البشر لا الظواهر الكونية التي وردت في سورة النحل. ووضوح التناسب لا يحتاج إلى زيادة بيان[٤]. فجاء كل لفظ مناسب لسياق الآية التي ورد بها.

رابعاً: قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ النحل: ٧٠، وقال عز وجل: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ ﴾ الحج: ٥. بزيادة (من) في الآية الثانية وحذفها من آية النحل.

والعلة في هذا التناسب وتشاكل النظم ومراعاة اللفظ، فسياق الآيات التي سبقت آية الحج تكررت فيها (من) كثيراً في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ

(١) ينظر: البرهان للكرماني ١٣٨.
(٢) ينظر: كشف المعاني ١ / ٢٢٥.
(٣) ينظر: متشابه القرآن الكريم ٤٨٩.
(٤) ينظر: نظم الدرر ٤٢٨.

مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ الحج: ٥، وواحدة بعدها[١]. وكلها أحرزت معناها الذي جاءت من أجله إلا التي في قوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا ﴾، إذ النظم مع سقوطها سليم والمعنى تام، فاستوى وجودها وعدمه، فاستدعاها سياق آية الحج للتشاكل والتناسب في النظم[٢]، ولم يكن النظم في آية النحل بهذا الحال، إذ لم يكن هناك ما يستدعي ويقتضي ورود (من) فيها. فورد كل على ما يجب ويناسب. ولا يمكن العكس، فالأولى في قوله: ﴿ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ لابتداء الغاية وما بعدها للتبعيض[٣]، إلا التي في قوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ ﴾، فإنّها زائدة مراعاة اللفظ (لا) النافية وإن كانت هنا مزيدة. فضلاً عن مقام التفصيل والإجمال، فقد ذكر في سورة النحل الجملة التي فصّلت في سورة الحج، وكانت لفظة (بعد) لجملة الزمان المتأخّر عن الشيء، قال: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ﴾ فأجمل ما فصّل في السورة الأخرى، وبعده: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ ﴾ أي يغيب عنه في حال الهرم ما كان يعلمهُ قبل من الحِكَمِ ويستدركه من الآراء ويرتكبه من الأفعال القويمة[٤]. فكان هذا موضع جمال لا تفصيل معها ولا تحديد. ولم يكن الأمر كذلك في سورة الحج؛ أنَّه قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ الحج: ٥، يعني أصلكم وهو آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾ أولاده، ﴿ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ ﴾، فذكر تفصيل الأحوال ومباديها، فقال من كذا أو من كذا الابتداء، كل حال ينتقل منه إلى غيره، فبنى ذكر الحال التي ينتقل فيها من العلم إلى فقده على الأحوال التي تقدّم ذكرها، فكما حدد اوائلها ب(من) كذلك حدد الحال الأخيرة عمّا قبلها ب(من)، فقال: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ ﴾، أي: فقد العلم من بعد أن كان عالماً فباين الموضع الأول لذلك[٥] فناسب ذكر (من) لأنَّه مقام بسط وتفصيل، ولم يذكرها في سورة النحل؛ لأنّه مقام اختصار وإجمال.

(١) ينظر: البرهان للكرماني ١٢٥.
(٢) ينظر: هداية المرتاب ٥٣.
(٣) ينظر: الدر المصون ٣ / ٤١٥.
(٤) ينظر: الإتقان ٣ / ١٥٧.
(٥) ينظر: درة التنزيل ١٤٦.

المبحث الثاني الإفراد والجمع المعارف

أولا: قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ النحل: ٦٥، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ النحل: ٦٧، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل: ٦٩، باستعمال لفظ (آية) مفرداً في الآيات الثلاث، مع أنَّ الآية السابعة والستين فيها تفصيل كثير من ذكر الأنعام ولبنها، وذكر ثمرات النخيل والأعناب، وما يتخذ منها، وعليه فالقياس أن تأتي مجموعة (آيات) وليس مفردة، بخلاف الآية الأولى والثالثة التي لم يذكر فيهما ما ذكر في هذه الآية.

والجواب عن ذلك أنّه لمّا كان المذكور في كلّ آية صنفاً واحداً، جعل ما دلّ منه على الصانع آية واحدة، وذلك يعدّ اتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب هو نوع واحد، وقد أفرد في قوله: ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ ﴾ فجاء إفراد (آية) على ذلك[١].

أمّا الأنعَام فقد أسند بذكر (الآية) فيها قوله في ابتداء آيتها: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾، فكانه قال: لكم فيها آية، لأنَّ إخراج اللبن بين الفرث والدم هو نتيجة لما تدره الأنعام[٢]، فقوله: ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ كافٍ عن (آية) ومغن عنها. فلا حاجة للجمع بينهما. والخلاصة: (إنَّ في ذلك) تستعمل للصنف الواحد. وكذلك الآية الأولى فإنّ الاعتبار فيها بالماء المنزل من السماء، والاعتبار في الثالثة بما تضمنت من أمر النحل الإيحاء إليه بما ذكر، فالاعتبار في كل موضع إنمّا وقع بنوع مفرد[٣]، وما وقع من تفصيل فمصرفه إلى حال أو وصف مع وحدة النوع.

ثانياً: قال تعالى: ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ النحل: ١١ – ١٣.

حيث وردت لفظة (آية)، بالإفراد في الآية الحادية عشرة والثالثة عشرة. أما في الآية الثانية عشرة، فإنّها وردت بالجمع وتعليل هذا الاستعمال هو أنَّ الإشارة في الآية الحادية عشر، يخصّ المنزَّل من السماء في الآية التي قبلها: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٤ / ٢٧٣.
(٢) ينظر: معترك الأقران ٢ / ١١٧.
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب ١٣ / ٣٥١.

فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ النحل: ١٠، ثمَّ قال: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ ﴾ النحل: ١١، أي: ينبت لكم بالماء المنزّل من السماء ضروب الأقوات والفواكه وأنواع الثمرات، فقيل: ﴿ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ ﴾ بالإفراد، لأنَّ الإشارة إلى الماء أو إلى أنواع الثمرات المختلفات في الطعم واللون، مع وحدة المادة من الماء وهو واحد(١)، وكذلك الحال في الآية الثالثة عشرة، فالإشارة فيها إلى الجنس الواحد الواقع عليه لفظ (ما) من قوله عز وجل: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ ﴾ فأفرد الضمير في (ألوانه) لرجوعه إلى (ما)(٢)، الواقعة على جنس واحد مبثوث في الأرض، يشتمل على أنواع مختلفة في الطعم واللون، فأفرد لفظ الآية لإفراد الضمير، لأنّه واقع على الجنس الذي عبّرت عنه (ما)، وهو جنس واحد(٣). فاقتضى ذلك إفراد لفظ (آية).

أمّا لفظ (آيات) الوارد في الآية الثانية عشرة، فالإشارة فيها إلى أشياء مختلفة، أحيل عليها في الاعتبار، وسخرت لنا تسخيراً به قوام معاشنا وصلاح أحوالنا ومعرفة حسابنا، وهي الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم(٤)، وكل واحد من هذه تتسع فيه وجهات النظر والاعتبار بعجائبه. فالليل للسكون والراحة، والنهار للاكتساب والتصرف والسياحة، والشمس للإضاءة والتسخين، والقمر للضوء، وبالشمس والقمر تعرف الأوقات والشهور والسنون، قال سبحانه: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾ يس: ٤٠، فالنجوم للإهتداء في ظلمات البراري والبحار، وبتجاهل الاعتبار بهذه الخمس (الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم)، يضيع الإحصاء(٥)، فللإشارة إلى هذه المتعددات جمع، فقيل: (لآيات).

المطلب الثاني التذكير والتأنيث

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾ النحل: ٦٦، وقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ المؤمنون: ٢١، بتذكير الضمير في آية النحل، وتأنيثه

(١) ينظر: ملاك التأويل ٢ / ٧٥٢.
(٢) ينظر: تفسير القرطبي ١٣ / ٧٢.
(٣) ينظر: روح المعاني ٩ / ٣١٩.
(٤) ينظر: البرهان للكرماني ١٥٥.
(٥) ينظر: هداية المرتاب ٦١.

في آية المؤمنين.

والسبب في هذا أنَّ الضمير في آية النحل المراد بهِ الجنس. وقد روى سيبويه أنَّ من العرب من يقول: هو الأنعام. فحمل هنا على تذكير الضمير(١). فضلاً عن أنَّ الأنعام وإن أطلق لفظ جمعها فإن المراد به بعضها. ألا ترى أنَّ الدار لا يكون لجميعها وأنَّ اللبن لبعض إناثها، فكأنه قال: وإنَّ لكم في بعض الأنعام لعبرة نسقيكم ممّا في بطونه، ولهذا ذهب من ذهب إلى أنَّه رد إلى النعم؛ لأنَّه يؤدي ما تؤديه الأنعام من المعنى(٢). وليس كذلك في سورة المؤمنين؛ لأنَّه قال: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ المؤمنون: ٢١ – ٢٢، فأخبر عن النعم التي في أصناف النعم إناثها وذكورها، فلم يحتمل أن يراد بها البعض كما كان في آية النحل(٣). فضلاً عن مناسبة السياق لضمير التأنيث هنا فجاءت الضمائر التي بعده مؤنثة(٤) وهي قوله: (فيها) و(منها) و(عليها) فناسب ذلك السياق.

المبحث الثالث الأفعال

المطلب الأول الفعل الماضي المتصل بضمير الجمع

قال تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ النحل: ٣٤، وقال عز وجل: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ الزمر: ٥١، باستعمال (عملوا) في جملة الصلة في النحل، و(كسبوا) في سورة الزمر.

وعلّة ذلك الاستعمال هو مناسبة السياق في الآيتين، فآية النحل جاء قبلها إخبار عن المشركين: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ النحل: ٢٨، ثمَّ تتابعت الآيات إلى قوله: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ النحل: ٣٢، ثمَّ قطع الكلام إلى كفّار العرب في توقفهم عن الإيمان، فقال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ النحل: ٣٣، ثمَّ قال: ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ النحل: ٣٣، والمراد بهم القائلون: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾ النحل: ٢٨، فجاءت الآية بلفظ يناسب عمل السوء

(١) ينظر: الكتاب ٢ / ٢٠.
(٢) ينظر: البرهان للزركشي ٢ / ٩١.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤ / ٢٧٤.
(٤) ينظر: نظم الدرر ٤ / ٣٩.

من عمل للسيئات[1]، فقال: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ النحل: ٣٤، فأتى السياق متناسقاً ومتناسباً كلوحة فنية استكملت متطلبات جمالها[2].

وأما الآية الثانية، فإنّه وقع قبلها قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ الزمر: ٤٧ إلى قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الزمر: ٤٧ – ٤٨، ثمَّ قال بعدها: ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ الزمر: ٥٠، وتستمر الآيات بقوله: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ الزمر: ٥١، فناسبت لفظة ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ السياق، لمجيء لفظها في الآيات السابقة واللاحقة لها[3]، ولو كان العكس لما ناسب سياق كل من الآيتين[4].

المطلب الثاني الفعل المضارع المتصل بضمير الجمع

أولا: قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ النحل: ٦٥، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ النحل: ٦٧، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل: ٦٩، فجاءت فواصل الآيات مختلفة، فختم الآية الأولى ب(يسمعون)، وختم الآية الثانية ب(يعقلون)، وختم الثالثة بقوله: ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

والسبب في ذلك أنّه ختم الآية الأولى ب(يسمعون) توبيخاً لمن أنكر البعث واستبعد الحياة الثانية، فجاءت هذه الفاصلة ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ مناسبة لقوله: ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ ﴾ النحل: ٦٥، بناء ذلك على المتصل به من قوله: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ النحل: ٦٤، فاتصل ذكر إنزال الكتاب بإنزال الماء، وما سماه رحمة إلا لرحمته عباده به[5] وماء السماء رحمة، وقد سمّاه بذلك، وبالمنزل من الكتاب يتذكر اعتبار الرحمة بالماء المنزل من السماء. فكأنّه قيل له: إنَّ ذلك قبل التدبر مقرر في أوّل العقل، حتى أنَّ

(١) ينظر: هداية المرتاب ٥٧.
(٢) ينظر: البرهان للكرماني ١٢٩.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير ١٧ / ٦٦.
(٤) ينظر: بصائر ذوي التمييز ٥ / ٣٩١.
(٥) ينظر: نظم الدرر ٤ / ٤٢.

من يسمعه يعترف به، وهو أنَّ الأرض الميتة يسقيها الله بماء السماء فتعود حية بنباتها، فكذلك لا يستنكر أن يحيي الخليقة بعد موتها(١). ولهذا الإلتحام في المعنى أعقبت الآية المذكورة بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾، فجاءت الآيات كالنسق الواحد لتناسب ما بعدها(٢).

وأمّا اختصاص الآية الثانية بقوله: (يعقلون)، فلأنَّه قال: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ النحل: ٦٦، ومن المعلوم أنَّ الفرث لا ينعصر منه ما يسوغ للشارب، وأنَّ الدم أحمر، فيحول بقدرة الله لبناً أبيض بعد بعده ممّا استحال عنه في اللون والطيب. ففيه عبرة لمن اعتبر(٣). ولمّا قرن إليه ثمرات النخيل والأعناب وما يتحول من عصيرهما إلى ما يستلذ ويجلب ما يسر سوى طيب رطبها ويابسها، احتاج ذلك إلى تدّبر يعقل به صنع صانع لا يقدر غيره عليه؛ فلذلك قال في الآية الثانية: (يعقلون) فحكم كل ما ذكر لا يمكن الوصول إلى معرفة سببه ولا تعليله بطريق الحواس، ولا يوصل إلى ذلك إلا بالتفكرّ والاعتبار، إذ العقل هو مفتاح لتدبر المحال الذي يعجز البشر من فهمه.

وأمّا اختصاص الآية الثالثة بقوله: (يتفكرون)؛ فلأن التفكّر استعمال الفكر أي تدبر الأحوال، وفي النحل عجائب من صنع الله تتبع كلّ أعجوبة أعجوبة من طاعتها لصانعها، ثمَّ أشكال ما تبنى من بيوتها التي لو حاول الإنسان صنعها بأمثلة يجتذبها وتقديرات يقدّمها لتعذر عليه، ثمَّ إنَّها من أزاهير النبات والأشجار ما هداها إليه إلهام الله وأرشدها إليه، ثمَّ تضع ما يجتمع في جوفها عسلاً(٤). فهذه أشياء تقتضي فكر أبعد فكر ونظراً بعد نظر؛ فلذلك عقبت بقوله: (يتفكرون).

ثانياً: قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل: ١١، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ النحل: ١٢، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ النحل: ١٣، فوصف القوم بالآية الحادية عشرة بالتفكير، وفي الآية الثانية عشرة بالعقل، وفي الآية الثالثة عشرة بالتذكر.

وعلة هذا الاختلاف في وصف القوم، أنَّ التفكر إعمال النظر بقصد الفائدة، وهذه المخلوقات التي تنجم من الأرض، إذا افُكِرَ فيها، عُلِمَ أنَّ معظمها ليس إلا للأكل، وأنَّ الأكل به قوام ذي

(١) ينظر: مفاتيح الغيب ١٣ / ٣٢٩.
(٢) ينظر: درة التنزيل ١٤٣.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٣ / ٢٠٧.
(٤) ينظر: روح المعاني ٩ / ٣٢١.

الروح. وأنَّ المنعم عليه يحتاج أن يعرف المنعم به؛ ليقصده بشكر إحسانه. فهذا موضع تفكُّر، بعث الناس عليه ليقضي بهم إلى المطلوب منهم(١).

أمّا تعقيب ذكر الليل والنهار وما سخّر في الهواء من الأنواء بقوله: (لعلّكم تعقلون)؛ فلأنَّ متدبر ذلك أعلى رتبة من متدبر ما تقدم في الآية التي قبلها(٢)، فالمنافع المجهولة فيها أخفى وأغمض؛ فمن استدرك الآيات فيها استحق الوصف بما هو أعلى من رتبة المتفكر المتدبر، لأنّه المنزلة الثانية التي تؤدي إليها الفكرة، وهو أن يعقل مطلوبه منها ويدرك فائدة منها(٣).

أمّا الآية الثالثة عشرة، وهي: ﴿ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ النحل: ١٣، فلأنَّه لما نبّه في الآيتين سابقتين على أثبات الصانع، نبّه هنا على أنَّه لا شبه له مما صنع؛ لأنَّ من رأى المخلوقات أصنافاً مزدوجة مؤتلفة أو مختلفة، نفى عنه صفاتها، وعلم أنَّ خالقها يخالفها لا يشبهها ولا تشبهه(٤). ومن هذا نخلص إلى أنَّ كل لفظ ورد من أجل مناسبته للسياق الذي ورد فيه، فكل آية من هذه الثلاث لا يناسبها إلا ما أعقبت به.

المطلب الثالث المضارع والأمر

قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ٥٣ – ٥٥، وقال عز وجل: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ الروم: ٣٣ – ٣٤، وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥ – ٦٦، باستعمال فعل الأمر (تمتعوا) في آية النحل والروم، في حين استعمل الفعل المضارع (يتمتعوا) في آية العنكبوت.

وجواب ذلك أنَّ آية النحل افتتحت بخطاب الحاضر، فأجرى قوله: (فتمتعوا) على هذا اللفظ من الخطاب، أمّا آية العنكبوت فافتتحت بالإخبار عن الغائب وهو: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى

(١) ينظر: الدر المصون ٣ / ٤٤٣.
(٢) ينظر: الكشاف ٢ / ١٠٧.
(٣) ينظر: متشابه القرآن الكريم ٤٧٧.
(٤) ينظر: ملاك التأويل ٢ / ٧٨٣.

ٱلْفُلْكِ ﴾ العنكبوت: ٦٥، فلم يتناول الإخبار الناس كلهم(١)، بل تناول المذكورين، فقوله: ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ يتناول جميع من شمله الضمير في قوله: ﴿ رَكِبُوا۟ ﴾، وظاهر الخطاب تساوي هؤلاء في مرتكبهم، فالوعيد شامل لجميعهم، فحسن توكيد الوعيد لشموله لهؤلاء(٢). والآية في سورة الروم وإن افتتحت بلفظ الإخبار عن الغائب، فإنَّ لها في لفظها نظير ردت إليه، وصارت كالفرع، وهي قوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ الزمر: ٨، فهذه الآية مفتتحة بمثل ما افتتحت به تلك، إلا أنَّ هذه الآية لواحد من الناس، وتلك للجميع، فصارت كالفرع على الأولى(٣)، فكان حملها على عذا اللفظ أولى.

المطلب الرابع المصدر والفعل الماضي

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ ﴾ النحل: ٦١، وقال عز وجل: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ ﴾ فاطر: ٤٥، باستعمال لفظ (بظلمهم) في آية النحل، و(بما كسبوا) في الآية الأخرى.

وعلّة ذلك أنَّ آية النحل تقدّمها آيات كثيرة جاء بها الخبر عن الذين نهوا أن يتخذوا إلهين اثنين، وأن يشركوا الأصنام في عبادته وأن يجعلوا لها نصيباً من مالهم، ويدّعو أنَّ الملائكة بنات ربهم، وأن يئدوا بناتهم خوف إملاقهم، وكل ذلك من أفعالهم ظلم منهم لأنفسهم مع ظلمهم لغيرهم، فضلاً عن إشارة الآية إلى أعظم الظلم وأشنعه وهو وأد البنات، إذ لم يتقدم للمؤودة جريمة ولا شبهة يتعلق بها قاتلها، فناسب هذا ذكر الظلم والضمير في (عليها) للأرض، يفهم ذلك من سياق الكلام(٤)، وهذا من الإيجاز الذي يقوم مقام الإكثار والإظهار، تقول العرب: ما فوقها أصدق من فلان ولا تحتها أكذب من فلان، يعنون: فوق الأرض، وتحت السماء،

(١) ينظر: كشف المعاني ١ / ٢٣١.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤ / ٢٦٥.
(٣) ينظر: متشابه القرآن الكريم ٤٨١.
(٤) ينظر: الدر المصون ٣ / ٣٣٥.

وقوي إضمار هذا الاسم لشهرة الاستعمال فيه[1]، ولأنَّ المذكور مشاهد لكلّ متكلّم يقدر على الإشارة إليه.

أمّا آية فاطر فإنّه لم يتقدم عليها إفصاح بذكر الظلم، بل تقدمها قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ ﴾ فاطر: ٤٢ - ٤٣، إلى قوله: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ ﴾ فاطر: ٤٣، فأشار إلى اجترامهم وسيء اكتسابهم بنفورهم ومكرهم السيء، فناسب ذلك قوله: (بما كسبوا)، واستعمل لفظ (على ظهرها) هنا، والمراد ظهر الأرض، ولم يذكر (الظهر) في آية النحل؛ لتقدّم الظاء في المبتدأ بعد (لو). والظاء تعز في كلام العرب، ألا ترى إنّها ليست لأمّة من الأمم سوى العرب، فلما اختصّت بلغتها لم تستعمل في الآية الأولى[2]، واستعملت في الآية الثانية جواب ما بعد (لو) لهذا، ولم تجيء في هذه السورة إلا في سبعة أحرف تكررت، نحو الظلم والنظر والظل وظل وجهه والظفر والعظيم والوعظ، وأجريت مجرى ما استعمل من الحروف فلم يجمع بينهما في جملتين معقودتين عقد كلام واحد[3]، وهما ما بعد (لو) وجوابها، وحسن التأليف وقصد الحروف مراعى في الفصاحة لا يخفى على أهل البلاغة. فضلاً عن روعة السياق بالإشارة إلى طول وقصر الكلمات المستعملة، فجاءت لفظة (على ظهرها) لتناسب في طول تركيبها قوله: (بما كسبوا) كما ناسب قوله (عليها) في الآية الأولى قوله: (بظلمهم) في قلة حروفها[4]، وبذلك نرى إعجازاً في تناسب التوازن والتقابل لكل لفظه.

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٧ / ٤٣.
(٢) ينظر: درة التنزيل ١٢٣.
(٣) ينظر: الجنى الداني ٢٣٤.
(٤) ينظر: ملاك التأويل ٢ / ٧٨٢.

الخاتمة

وفيها أذكر النتائج التي تمخضت عنها المباحث السابقة، وهي تمثل أهم النقاط المبعوثة فيها، وهي:

١. إن الظواهر اللغوية موجودة في كتاب الله عزوجل بكثرة، وإنما تختلف باختلاف نوع الدراسة فيها، فهنالك جوانب كثيرة لم أتطرق لها في بحثي هذا وإن كانت لغوية نحوية، كون دراستي قد اقتصرت على جانب واحد وهو خصائص الاستعمال اللغوي.

٢. إنَّ البحث في خصائص الاستعمال اللغوي انقسمت على نوعين من الدراسة الأولى دراسة نقدية أسلوبية كما هو المبحث الأول الذي خصصته بالتركيب والثاني دراسة وصفية كما هو المبحث الثاني والثالث.

٣. لم يتطرق المفسرون الى هذا اللون من الدراسة اللغوية، وإنما تناثرت أقوالهم عند سردهم لتفسير الآية، بخلاف المتأخرين من المفسرين الذين أفردوا جانباً للغة في تفسيراتهم وعلى رأسهم الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير).

٤. قامت هذه الدراسة على اختلاف مباحثها على قضية السياق ومناسبة الاستعمال لذلك السياق فكان الاستعمال اللغوي فيها مراعياً للسياق الوارد فيه، وبيّنت من خلاله عظمة نظم القرآن وروعته فلا يمكن عكس الاستعمال في أي من خصائص الاستعمال اللغوي السالفة الذكر.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ) ضبطه وصححه وخرج آياته محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٨ م، بيروت / لبنان.

٢. إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد العمادي (٩٥١ هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٤، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م / بيروت لبنان

٣. البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي (٧٤٥ هـ)، دراسة وتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، بيروت لبنان.

٤. البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، برهان الدين أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (٥٠٥هـ)، تحقيق وشرح وتعليق د. السيد الجميلي، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٤ م، مصر القاهرة.

٥. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين أبو عبد الله بن بهادر بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ)، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ط ١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، بيروت - لبنان.

٦. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (٨١٧هـ)، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان (لا. ت).

٧. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مؤسسة التأريخ العربي، ط١، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م، بيروت - لبنان.

٨. التفسير الكبير (مفتاح الغيب) فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي الرازي (٦٠٤هـ)، دار الكتب العلمية ط ٣، ٢٠٠٩ م، بيروت - لبنان.

٩. تفسير الكشاف، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (٥٣٨هـ) رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، ط٥، ٢٠٠٩ م بيروت - لبنان.

١٠. الجنى الدني في حروف المعاني، حسن بن قاسم المرادي (٧٤٩هـ) تحقيق د. طه محسن، مطابع مؤسسة دار الكتب، الموصل، ١٩٧٦م.
١١. الدار المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي (٧٥٦هـ)، تحقيق الشيخ علي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م، بيروت - لبنان.
١٢. درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي (٤٢٠هـ)، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م، بيروت - لبنان.
١٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (١٢٧٠هـ)، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٩م، بيروت - لبنان.
١٤. الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر، أبو بشر سيبويه (١٨٠هـ)، تح، عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي / القاهرة، ط١ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
١٥. كشف المعاني في المتشابه من المثاني، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة (٧٣٣هـ)، تح وتعليق: د. عبد الجواد خلف، دار الوفاء للنشر، ط١، ١٩٩٠م.
١٦. متشابه القرآن الكريم، القاضي عبد الجبار بن احمد بن عبد الجبار الهمذاني (٤١٥هـ)، تح: محمد العزازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢ - ١٩٩٤م.
١٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (٥٤٦هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، بيروت - لبنان.
١٨. معترك الأقران في إعجاز القرآن، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ)، ضبطه وصححه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م، بيروت - لبنان.
١٩. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (٧٠٨هـ)، تحقيق سعيد الفلاح دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م، بيروت - لبنان.
٢٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي

(٨٥٨هـ)، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م بيروت - لبنان.

٢١. هدية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتاب، علم الدين أبو الحسن علي بن محمد السخاوي (٦٤٣هـ)، حققه وشرحه وقدم له عبد القادر الخطيب الحسني، دار الفكر، ط٤، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧ م، دمشق.